مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

دراسات | 2020

التربية الأخلاقية
وإسهامها في رفع التحديات البيئية الراهنة

يامنة اداحيا
طالبة بسلك الدكتوراه
مختبر الحوار والمقاصد للأبحاث والدراسات، تكوين الحوار الديني والثقافي في الحضارة الاسلامية
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال
المغرب

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020
لجنة الإعلام والتواصل

مقدمة:

إن التأمل في موضوع البيئة وقضاياها ومشكلاتها، يعد ضرورة شرعية وواجبا إنسانيا وحضاريا لصونها من معاناتها المتعددة الجوانب والأخطار المحدقة بها. إذ إنه رغم تنامي الاهتمام الفكري والتشريعي سعيا للحفاظ عليها، فإن الاستغلال البشع للموارد الطبيعية، رغبة في الوصول إلى أقصى درجات الإشباع والرفاهية، قد أسس لنمط وثقافة استهلاكية مدمرة وغير مستديمة وهو الأمر الذي يفرض حتما ضرورة مراجعة الوعي العالمي المشترك في سبيل إنقاذ الطبيعة من براثين مخلفات الفساد الإنساني، ضمانا لحق اللاحق من الأجيال.

ولا شك أن السياق العالمي اليوم على وعي نظري بالأزمة البيئية، ويسعى لإيجاد حلول عملية لتجاوزها، لكون المسألة مسؤولية مشتركة للإنسانية جمعاء، ومن هذا المنطلق تظهر أهمية البعد الأخلاقي للإسهام في عملية الإصلاح هذه للحفاظ على البيئة ومستقبلها، إذ لابد من وجود نظام قيمي أخلاقي يصحح الخلل، ويقوم التجربة العلمية الإنسانية في هذا المجال. نظام أخلاقي، يشمل ويعم الإنسانية كافة، التي تجمعها وحدة الخلق ووحدة المصير، في علاقتها مع الطبيعة. وهذه العودة تقتضي تربية أخلاقية وفق مبادئ وضوابط، تحمل الرحمة والعدل والصلاح في الأرض، وتبني الإنسان المتخلق على أساس قيم الإرادة والمسؤولية والإلزام من أجل الحفاظ على المشترك البيئي. ويروم ذلك إلى تشكيل وعي حضاري عالمي جديد، مؤسس لإنسان فريد، وبان لحضارة إنسانية راشدة.

إن حديثنا عن التربية الأخلاقية في علاقتها بالبيئة، يعد من أهم المباحث التي تستحق الدراسة والتحليل بغية بيان أهمية الموضوع وأبعاده الممكنة وحاجة العالم الماسة إليه، لاسيما في وقتنا الراهن الذي أضحت فيه التحديات البيئية مشكلا مطروحا بحدة. تحقيقا لذلك، يطمح هذا البحث إلى توضيح النظر في أثر التربية الأخلاقية في حفظ السلامة البيئية، من خلال السعي إلى الإجابة عن سؤالين مركزين : لماذا الأخلاق؟ ولماذا التربية الأخلاقية؟ كأساس ومنطلق للحفاظ على المشترك البيئي. وأملا في بلوغ ذلك المرام، سنقارب الموضوع من خلال أربعة محاور أساسية:

المحور الأول: ماهية التربية الأخلاقية.

والمحور الثاني: تغييب العقل الأخلاقي والتهديد البيئي

والمحور الثالث: المشتركان الإنسانيان؛ الأخلاق والبيئة

والمحور الرابع: التربية الأخلاقية والسلامة البيئية.

المحور الأول: ماهية التربية الأخلاقية

تعدّ المفاهيم والمصطلحات الركيزة الأساسية التي يقوم عليها كل فن، واللبنة الرئيسة التي يبنى عليها كل علم، فلا يمكن البتة تصور علم مستقل من غير تحديد واضح لحدوده ومفاهيمه المكونة لمحتواه ومضمونه. فالاصطلاح والتعريف يخول للموضوع المدروس نسقا وبناء متكاملا ويبعد مقاصده ومراميه عن سوء الفهم وصعوبة التعليم ونشوء إشكالات الفهم، ولذلك اعتُبرت المصطلحات مفاتيح للعلوم. وحتى يتأتى لنا فهم المراد من التربية الأخلاقية، كان لزاما تحديد ماهية المصطلحات المكونة لهذا المفهوم. فالتربية الأخلاقية مركب وصفي يقتضي التعريق بشقيه: "التربية" و"الأخلاق". أما التربية في اللغة: من ربى يربوا، بمعنى نما وزاد وارتفع، وربيت فلانا أربيه تربية أي غذوته[1]. أما الراغب الأصفهاني فيعرفها قائلا: "الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، يقال ربه، ورباه، وربيه"[2].

أما في الاصطلاح فتستعمل التربية بمعنى التهذيب وعلو المنزلة، وقد ذكر ذلك الزمخشري، فقال: "ومن المجاز: فلان في رباوة قومه: في أشرفهم"[3].

والتربية في معناها العام تحيل إلى "تغذية الجسم وتربيته بما يحتاج إليه من مأكل ومشرب ليشب قويا معافى قادرا على مواجهة تكاليف الحياة ومشقاتها. فتغذية الإنسان والوصول به إلى حد الكمال هو

(1) ابن فارس، أحمد. مقاييس اللغة، دار الجبل، بيروت، ط1، ب. ط، ج 1، مادة (ربى)، ص 509.
(2) الأصفهاني، الراغب. المفردات في غريب القرآن، تحقيق داوودي صفوان، دار العلم، دمشق، ط1، 1412هـ، ص 336.
(3) الزمخشري، محمود بن عمر جار الله، أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة، ط1، 1341هـ/1922م، كتاب الراء، مادة ربو، ص158.

معنى التربية، ويقصد بهذا المفهوم كل ما يغذي في الإنسان جسما وعقلا وروحا وإحساسا ووجدانا وعاطفة"[4].

أما الأخلاق فجمع الخلق، حيث يقول ابن فارس: الخلق: السجية لأن صاحبه قد قدر عليه. يقال: فلان خليق بكذا: أي قادر عليه وجدير به[5]. وورد في لسان العرب: الخلق: الطبيعة وجمعها أخلاق والخلق: السجية، والخلقة: بمعنى الفطرة، والخلق هو الدين والطبع وحقيقته: وصف لصورة الإنسان الظاهرة والباطنة هي نفسه، وهي أوصاف حسنة وقبيحة[6].

أما اصطلاحا: يرى ابن مسكويه أن الخلق هو: "حال للنفس، داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا رؤية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج... ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر، ثم يستمر عليه أولا حتى يصير ملكا وخلقا"[7]. ويورد الغزالي الأخلاق كونها: " هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية"[8].

أما الصنيع فيعرفها قائلا: "مجموعة من السلوكيات التي يظهرها الفرد في تعامله مع الأحداث التي تواجهه أو الأفراد الذين يتعامل معهم في الحياة، ويكتسب معظمها من خلال التربية والبيئة التي عاش فيها الفرد خلال مراحل عمره المختلفة"[9].

وحدد شيخاني محمد فيصل معنى الأخلاق بأنها صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار في السلوك بعينه محمودة أو مذمومة [10].

---

(4) محجوب، عباس. أصول الفكر التربوي في الإسلام، دار ابن كثير، دمشق، 1398هـ/1978م، ص 15.

(5) ابن فارس، أحمد. مقاييس اللغة، (م. س)، ج2، ص 214.

(6) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج10، ص 86.

(7) ابن مسكويه. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1401هـ/1981م، ص25و26.

(8) الغزالي، محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، دار الندوة الجديدة، دار الحكمة، دمشق، بيروت، 1407هـ/1986م، ج3، ص 53.

(9) الصنيع، صالح بن إبراهيم. دراسات في علم النفس من منظور إسلامي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1423هـ، ص 142.

(10) شيخاني، محمد فيصل. القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية: دراسة تاريخية وتربوية تحليلية، مكتبة الأسد، 1997م، ص 15.

يتضح إذن أن القيم والأخلاق تدخل ضمن ما يسمى بالعقل العملي، إذ تحدد لنا الأفعال والسلوكات التي من الواجب أن نقوم بها والأفعال التي علينا أن نتجنبها، ليس اتجاه الخالق فقط بل اتجاه ذاتنا وأنفسنا، وتجاه غيرنا، فردا كان أو مجتمعا أو إنسانية، وتجاه البيئة والطبيعة التي نحيا فيها ونتفاعل معها.

من خلال ما سبق ذكره، يتبين أن التربية الأخلاقية هي تنشئة الإنسان وتنميته على الأخلاق الحميدة بحيث تكون سجية ملازمة له وسلوكا دائما في جميع أحواله. وتتكون لدى الطفل نتيجة للخبرات المتعددة التي يمر بها داخل المدرسة وخارجها.

وبما أن غرضنا من التربية الأخلاقية تحقيق السلامة البيئية، فنحن بصدد الحديث إذن عن التربية البيئية، باعتبارها "ذلك النمط من التربية الذي يهدف إلى تكوين جيل واع ومهتم بالبيئة وبالمشكلات المرتبطة بها، ولديه من المعارف والقدرات العقلية والشعورية بالالتزام، ما يتيح له أن يمارس فرديا وجماعيا حل المشكلات القائمة وأن يحول بينها وبين العودة إلى الظهور"[11]. كما عرفها مؤتمر تبيليسي (1977م) بأنها "عملية إعادة توجيه وربط لمختلف فروع المعرفة والخبرات التربوية بما ييسر الإدراك المتكامل للمشكلات ويتيح القيام بأعمال عقلانية للمشاركة في مسؤولية تجنب المشكلات البيئية والارتقاء بنوعية البيئة"[12].

المحور الثاني: تغييب العقل الأخلاقي والتهديد البيئي

تعتبر القيم والأخلاق مدخلا ثابتا وجوهريا لتحقيق السلامة البيئية. ولبيان ذلك، كان لزاما التطرق إلى آثار استبعادها على البيئة جراء علمانية المعرفة العلمية الوضعية. حيث شهد العالم المعاصر تقدما علميا وثقافيا هائلا في مختلف المجالات والميادين، هيمن فيه العقل والتجربة على الحياة، وأصبح العلم مبنياً على أساس مادي يؤمن بالحس والتجربة فقط، واستبعدت فيه كل القوى الأخرى، خاصة الغيبية منها والقيمية. وقد أدت عملية التغيير هذه إلى الفصل والعزل التدريجي لدائرة القيم والأخلاق عن المصدر الديني (الدهرانية بتعبير طه عبد الرحمان) من جهة، ثم الخروج عن الأخلاق (ما بعد الدهرانية بحسب تعبيره أيضا) من جهة ثانية. وبذلك شكل مبدأ (العالم لا يمثل نظاما أخلاقيا) أحد أسس الرؤية الآلية الميكانيكية الحداثية للعالم والتي تبلورت في السياق الغربي منذ القرن 17 لاعتبارات اعتدت حججا وأسبابا لهذا الغياب، ففصلت بين الحقيقة العلمية والغيبية بحجة "الموضوعية العلمية"، و"استقلال

(11) هلال، عصام الدين. التربية البيئية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2007م، ص 13.

(12) هلال، عصام الدين. التربية البيئية، (م. س)، ص 13.

المعرفة العلمية"، أو "تعذر المعرفة الغيبية"، إضافة إلى أن هذا الفصل من شأنه أن يسمح للممارسة العقلية بـ"متسع للاستزادة الدائمة"[13]، وغيرها من الأسس التي بني عليها النسق المعرفي الغربي الحديث.

وبقدر ما كان لهذه الرؤية الحداثية وما بعد الحداثية من نتائج إيجابية، نظريا وعمليا، بقدر ما أفرزت من مشكلات وأزمات وشذوذات كونية وعالمية، على الطبيعة والإنسان، إذ يصح أن نصف الزمن الحديث والمعاصر بأنه زمن الإخفاق والمأزق القيمي-الأخلاقي. فمثلا نجح العالم في اختراع المدافع والقنابل الذرية وصواريخ الفضاء والدبابات والمدمرات، صفق الكل لما وصل إليه من إنجاز عظيم، واعتبروا ذلك تقدما علميا دون أن يكترثوا بخطورة استخدام العديد من المخترعات القادرة على تدمير شامل للبشرية جمعاء، وإلى تخريب بيئتها وحضارتها[14]. ولعل ذلك راجع إلى الفصل الواضح بين الروحي والمادي، بين أصلية إنسانية الإنسانية وفرعية احتياجاته المادية، فالعلم وإن كان "قادرا على رصد الظواهر الطبيعية المادية في الإنسان، عجز عن رصد الجوانب المركبة (المعنوية والمادية) مثل بحثه عن المعنى، كما أنه عجز عن تزويد الإنسان بمنظومة من القيم المعرفية والأخلاقية والجمالية"[15]، حيث "أصبحت المعاني الدينية والقيم الأخلاقية تعد عنده بمنزلة عوائق أو عقبات تثبط العمل العلمي وتخرجه عن حقيقته وفائدته"[16]. وفي المقابل أصبح للعقل "منزلة السلطان الداخلي الذي يملكه الإنسان لإصدار أحكامه على جميع الأشياء، ولإتيان أفعاله على مقتضى هذه الأحكام"[17]. فغدى على إثرها إنسان اليوم إنسانا متأزما لأنه لم يتمكن بعد من مسايرة أوضاع المعاصرة، وسيطرت عليه النزعات المادية والنزوات والشهوات على حساب ما للإنسان من قيم الاحترام والعدل والحرية...وقد كانت نتيجة ذلك "إفلاس المعنى، والفراغ الأخلاقي النظري"[18] بتعبير جاكلين روس.

---

(13) للتوسع أكثر ينظر: طه، عبد الرحمان. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1997م، ص 148و149.

(14) يمكن الاستفادة هنا من بعض كتابات عبد الوهاب المسيري في بيانه لخطورة سيرورة التقدم الغربي وطبيعة الحضارة الغربية، إذ يعتبرها حضارة لا تهاجم رؤية معينة ولا دينا معينا ولا منظومة قيمية معينة، وإنما تهاجم فكرة الرؤية والدين والقيمة. كما أنه سرد معطيات كثيرة جدا حول آثار التقدم الغربي على البيئة من منظور معرفي وحضاري، فالغرب أصبح لا ينظر إلا بمنظار واحد ووحيد وهو التقدم ولا شيء غير التقدم، ولو كان ذلك على حساب اندثار البيئة وهلاك الإنسان والحيوان. وهذا ما تجلى في العديد من المظاهر الكارثية التي تنذر بمستقبل صعب ينتظر البشرية في المستقبل، من مثل: تناقص المساحات الخضراء والتلوث الهوائي والمائي والأرضي والباطني والتزايد الحراري وثقوب الأوزون وانتشار الأسلحة النووية والحروب والصراعات المستمرة، والفشل الذريع في التخلص من النفايات النووية وغير النووية واستنزاف الثروات الطبيعية والتسربات النفطية في البحار والمحيطات.

(15) حرفي، سوزان. حوارات مع عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، دار الفكر، دمشق، ط2، 1431هـ/2010م، ص 51.

(16) طه، عبد الرحمان. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، (م. س)، ص 67.

(17) طه، عبد الرحمان. روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص 101.

(18) روس، جاكلين. الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل عوا، دار عويدات، بيروت، ط1، 2001م، ص 13.

فالملاحظ أن الأزمة التي تعاني منها الإنسانية اليوم، ترجع بدرجة أولى إلى السبب القيمي الأخلاقي، أي أنها أخلاقية، "لأن الحضارة تنهار إذا أعوزها العامل الأخلاقي، حتى حينما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة، وازدهار الحضارة تصحبه دائما آداب توقير الحضارة ونظرة شاملة إلى الكون تبرز هذا الاتجاه الأخلاقي. فإذا سادت هذه النظرة ازدهرت الحضارة ونمت"[19].

فالقيم والأخلاق الإنسانية هي وحدها القادرة على توليد روح الخير، ذلك أن تفعيل القيم في المجتمع لا يكون "وسيلة لدفع المجتمع الحضاري الإنساني فحسب، بل إنه إضافة إلى ذلك يحدد للناس الهدف من التقدم في ظلام، لأن التقدم في ظلام، ومن غير هدف قد يضل وقد يقع في هاوية لا مخرج منها"[20]. "فلو أعيد للقيم دور الحكم على الأفعال وتمييزها لاتضحت المقاصد، وتميزت معالم الحق عن الباطل. إذ إن المودة والطيبة لا تسكنان القلوب إلا عندما يحترم الجميع القيم، لأن بالقيم تتبلور حدود الموضوعية والذاتية، وحدود أحكام الواقع، وأحكام التقييم، فيزاح عن السبيل الحيف والتزوير. فلو راعى علماء الكيمياء القيم الشمولية، وفضلوها على البرغماتية، لما عرف أهل هوريشيما وناجازاكي قنابل الذعر والدمار"[21].

إن الأخلاق هي سبيل خلاص البشرية من كثير من المشاكل، وهي وسيلة لإسعاد الناس. فالأخلاق والقيم "مفهوم حضاري، ومدخل منهاجي، وإطار مرجعي، ونسق قياسي، وتأسيس لرؤية كلية للعالم، ونموذج إرشادي معياري"[22]. وذلك باعتبار مكانتها السامية كونها أخلاق "الميثاق الأول" الذي أخذه الله تعالى على بني آدم كلهم وهم في عالم الغيب ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]. وبما أنها أخلاق فطرية تأسيسية، فهي بالضرورة إلزامية بمقتضى هذا العهد والميثاق الذي تحمله الإنسان، وصارت بذلك خاصية محددة له، بها يعرف ويتميز عن باقي المخلوقات. لأنها تسوي بين الحقوق والواجبات، وبها تحفظ السلامة البيئية، وبذلك تجلب الثقة في هذا العالم.

(19) الجندي، انور. القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية، مطبعة الرسالة، ص 484و485.

(20) يالجن، مقداد. دور التربية الأخلاقية الإسلامية، في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، دار الشروق، ط1، 1983م، ص81.

(21) الحبابي، محمد. دفاتر غدوية الدفتر الأول: أزمة القيم، دار المعارف، ص 24و25.

(22) نادية، محمود مصطفى. إشكالية البحث والتدريس في علم العلاقات الدولية من منظور حضاري مقارن، المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط1، 1431هـ/2010م، ج2، ص 866.

المحور الثالث: المشتركان الإنسانيان؛ الأخلاق والبيئة.

لقد عايشت الإنسانية أزمات مختلفة على مر الدهور، إذ كان لكل حقبة إنجازاتها وأزماتها وإن أطلقت عليها أسماء متباينة. غير أنه لأزمات الربع الأخير من القرن العشرين كثافة بلا مثيل لها في الماضي، وآفاق ذات أبعاد بلا نهاية، إلى حد أن ما تحدثه اليوم الأزمة من ردود أفعال يتجاوز إطارها ليشمل أكثرية الشعوب، ولا أحد يقدر على إيقاف أخطارها.

وبما أن لهذه الأزمات المعاصرة تماوجا سريعا يجرف باستمرار المراكب والشواطئ من غير راحة أو استراحة فإن الصعوبات والآلام تتلاحق وتتراكم بتوتّر يمنعها من المرور العابر، ويرغمها على أن تتلاحم وتتحرر، ومن كثرة ما تعود المعاصرون على استساغة الأزمات، وتمثلها أمسى مناخهم المعنوي والمادي والذهني ملوثا ومستعدا لتحمل عواقبها باستسلام خانع[23].

إذ إن من المشترك بين الناس قاطبة، وجودهم على الأرض واقتياتهم من خيراتها وعطائها، وسياحتهم في أقطارها وفضاءاتها، حتى إذا وقع ضرر بالبيئة في مكان ما فإنه يؤثر على باقي الأمكنة وباقي الناس، وهذا ما يؤكد ضرورة وعي عالمي مشترك، بإشراك الجميع، أفرادا وهيئات، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، في إعداد برنامج الحل المشترك وتنفيذه. ذلك أن التفكير المشترك في مستقبل تكاملي للإنسانية[24]، يمكن من تجاوز ما يحدق بها من مشاكل وأزمات، سواء على مستوى الإنسان نفسه، أو على مستوى الكون. فالبشرية بحكم اجتماعها في هذا الكوكب، وبحكم اكتشافها عددا من الإمكانات الهائلة التي تقرب المسافات وتطوي الزمان وتيسر التأثير والتأثر، أصبحت أزماتها كونية عالمية ولم تعد محلية.

(23) الحبابي، محمد. دفاتر غدوية الدفتر الأول: أزمة القيم، (م.س)، ص 12.

(24) عرف إيموركون الإنسانية بأنها: "خصلة خلقية تعبر عن مبدأ الإنسانية في العلاقات اليومية بين الناس وهي تشتمل على حسن النية تجاه الآخرين واحترامهم، والتعاطف معهم. والثقة بهم والسماحة ونكران الذات، كما وتفرض التواضع والأمانة والنزاهة، والإنسانية تربي في الناس، ويمكن أن تتجلى في العلاقات العلمية بين الناس تبعا لطابع العلاقات الاجتماعية فعنى المجتمع الطبقي التناحر، حيث يرى كل فرد في الآخرين أداة لتحقيق الأهداف الخاصة وموضوعا للاستغلال، وحيث تسيطر المنافسة والعداوة تغلب اللا إنسانية في العلاقات بين الناس وتسم بميسمها المجتمع الاستغلالي ككل بما فيه من بطالة وبؤس وحروب. وهنا تنحصر الإنسانية في كونها صفة فردية لأشخاص "كرام"... فالمضمون الأخلاقي الأصيل للإنسانية يظهر ويتطور في مجرى نضال الكادحين ضد الظلم الاجتماعي وظروف الحياة غير اللائقة بالإنسان" إيموركون، إشراف. معجم علم الأخلاق، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، ط5، 1983م، ص 96.

لذلك نجد أن قضية البيئة بتداعياتها الكونية، أضحت موضوع اهتمام عالمي، وتحد مشترك تداعت له جميع الثقافات بدون استثناء، لأن هذا النمط من القضايا -أقصد المخاطر البيئية-، تحتاج إلى حوار بين الإنسانية جمعاء للبحث عن نقاط الالتقاء والقواعد المشتركة من أجل وضع حد لهذه المخاطر والأزمات. فلابد من التسابق والتعاون على أساس هذا المشترك الإنساني نحو الخير والإصلاح في الأرض. فهي قضية متعالية عن الخصوصيات الثقافية والاجتماعية، مما يجعلها قضية مرشحة فوق العادة لأن تشكل موضوع التقاء مختلف الثقافات في إطار وعي إنساني جديد وعالمي، متمثلا أساسا في ترشيد السلوك الإنساني عبر القيم والأخلاق المتعارف عليها عالميا، سواء اتجاه الإنسان أو الحيوان، أو ما يؤثث هذا الكوكب إجمالا، وكذا من أجل الحفاظ على أصل الصلاح في الأرض وعدم إفسادها.

وعليه، فإن الأخلاق بدأت تتخذ مكانا محوريا على طاولة حوار الحضارات، باعتبارها من أبرز قضايا "المشترك الإنساني" إلحاحا وراهنية، لأنها سبيل توحيد البشرية وتوحيد أهدافها الحضارية، ولكونها أيضا الأقدر على حشد إجماع عالمي حولها رغم تباين المنطلقات والمرجعيات. فالبيئة مشترك إنساني، والأخلاق مشترك أيضا. وبالتالي لابد من الانطلاق من المشترك الثاني حماية للأول، فالوسيلة واحدة والهدف واحد.

ونتيجة لذلك، فالأفراد والمجتمع البشري، في ظل التحولات التي عرفها العالم المعاصر في ميادين شتى، في أشد الحاجة للقيم والأخلاق، لأنها غاية من أسمى الغايات الإنسانية، ومن أعظم مقومات الحضارة الإنسانية، لا يمكن الاستغناء عنها لأي جنس من الأجناس البشرية، ولا لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

المحور الرابع: التربية الأخلاقية والسلامة البيئية

إن النفس البشرية ليست خيرة في ذاتها، ولا هي أميل إلى الشر، بل لها استعداد لفعل الخير وفعل الشر، فهي صالحة للأمرين معا، ويؤكد الغزالي ذلك بقوله: "وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى

والانكباب على الشهوات، والإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان الهوى، وغلبت الشهوات عليه صار سيء الخلق، وإن جاهد هواه وقاوم شهوته صار حسن الخلق"[25].

وهنا تتجلى أهمية التربية ودورها الفعال في تعديل سلوك الفرد غير المرغوب، وتعزيز السلوك المرغوب فيه. فسلوك الإنسان قابل للتعديل والتبديل. وتبقى التربية الأخلاقية هي الشرط الأساس لاستكمال البناء الحضاري، وهي أساس تحقيق النهضة للشعوب والأمم، لأنها تستمد أهميتها ومشروعيتها من كونها تزرع الحب وحرية الإرادة في الحفاظ على البيئة، وهي أهم وسائل التربية الأخلاقية، البانية في نفوس الأفراد حس الإلزام وتحمل المسؤولية الأخلاقية. ذلك أنها –أي المسؤولية الأخلاقية- "التزام صادر عن ضميره، أو عقيدته، أو تقاليد مجتمعه، إذ لا نتصور مسؤولا بدون أن نتصور قبل ذلك، تعهده بقبوله إلزامه من لدن جهة من الجهات، وبأنه يتحمل المسؤولية عن طواعية واقتناع. فكأننا هنا أمام ميثاق أو عقد بين ضمير الإنسان وبين من يخاطبه بالالتزام"[26]. وهذا يقتضي التحقق بشرط "الإرادة الحرة في الاختيار وشرط القدرة على التصرف فيما يختاره ويلتزم به، وهي الشروط التي تحدد مجال المسؤولية من عدمها في النظام الأخلاقي، وذلك مقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72][27].

فالتربية الأخلاقية تتميز إذن بثلاثة وظائف أساسية مترابطة ومتفاعلة، وفي غاية من الأهمية. عنصر "الإرادة والاختيار" وعنصر "المسؤولية والالتزام" وعنصر "الجزاء". ذلك أن الأخلاق لا يمكن تفعيلها إلا بالتربية المنضبطة، حتى لا تبقى مجرد أطروحات نظرية، بل ينبغي أن تصير ممارسة تطبيقية من خلال زرعها في النفوس، وذلك "بوضع الخطط والبرامج العلمية والأوعية الشرعية، والامتداد

(25) الغزالي، محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، (م.س)، ج8، ص 136.
(26) الكتاني، محمد. منظومة القيم المرجعية في الإسلام، دار أبي رقراق، ط2، 1433هـ/12011م، ص 133.
(27) الكتاني، محمد. منظومة القيم المرجعية في الإسلام، (م.س)، ص 144.

بالاجتهاد في إقامة المؤسسات ووضع الدراسات، والإفادة من التجارب التاريخية، العامة والخاصة لحماية القيم ومراقبة تطبيقها، وحسن تنزيلها على الواقع"[28]، لتحقيق خلودها وعطائها المستمر.

والأخلاق، كما أسلفنا الذكر، "إرادية" خلافا للصفات النفسية غير الإرادية. لذلك فقد عرفها البعض بأنها "عادة الإرادة". يقول عبد الله دراز: "الخلق هو قوة راسخة في الإرادة، تنزع إلى اختيار ما هو خير وصلاح (في جانب الأخلاق الحميدة)، أو إلى اختيار ما هو شر وجور (في جانب الأخلاق الذميمة)"[29]. وفي الاختيار الإرادي بين الخلق المذموم والخلق المحمود تلعب التربية دورها الرئيسي. فتربية الإرادة أهم وسائل التربية الأخلاقية، يقول الغزالي: "المانع من الوصول إلى عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة"[30].

أما بشأن "المسؤولية"، فقد نادى علماء وفلاسفة البيئة بشدة بواجب الالتزام الأدبي تجاه الأجيال القادمة، وبتبني مبادئ أخلاقية تصحيحية، ك "أخلاق المسؤولية": التي اشتهر بوضعها الفيلسوف الألماني "يوناس هانس" (*Jonas Hans*) في كتابه "مبدأ المسؤولية: أخلاقيات من أجل الحضارة التكنولوجية"، الذي دعا فيه إلى ضرورة "إقامة ميثاق بيننا وبين الطبيعة كما أقمنا ميثاقا من قبل بيننا وبين المجتمع، ميثاقا نتحمل فيه مسؤوليتنا كاملة إزاء وجود الطبيعة باعتبار هذا الوجود موضوعا متمتعا بمشروعية قانونية تضاهي، إن لم تتجاوز، مشروعية وجود المجتمع"[31].

ويتم اعتبار هذه "المسؤولية الأخلاقية" من خلال الأخذ بمبدأ "الإلزام الأخلاقي"، أقصد التحلي بالأخلاق والصفات الحميدة والصالحة، التي من شأنها أن تحقق ترشيدا أخلاقيا في التعامل مع البيئة، من خلال الانتفاع والاستثمار واستغلالها دون الإضرار بها، وبالتالي فالحديث هنا عن "الجزاء". وفي هذا يقول "يوناس هانس": "لتأت فعلك على الوجه الذي يجعل آثاره تصون الحياة الإنسانية الحقة على وجه

(28) العمري، أكرم ضياء. قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، ضمن كتاب الأمة، ج1، ص 33.
(29) دراز، محمد عبد الله. دراسات إسلامية، دار القلم، الكويت، ط2، 1974م، ص 87.
(30) الغزالي، محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، (م.س)، ج3، ص 75.
(31) طه، عبد الرحمان. سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2006م، ص 124.

الأرض"[32]. فالمسؤولية هي في حقيقتها التوقيع الفعلي عن الالتزام الأخلاقي، بما هي تحمل الإنسان لنتيجة أفعاله التي التزم بها أو قررها أو اختارها، سواء كانت من الأفعال المحمودة أو الأفعال المذمومة.

إن هذه الضوابط والمبادئ الأخلاقية تترابط فيما بينها لتشكل أساس القاعدة الأخلاقية في علم الأخلاق، والتربية الأخلاقية، كما يقرر ذلك عبد الله دراز قائلا: "والواقع أن هذه الأفكار الثلاثة (الإلزام والمسؤولية والجزاء) يأخذ بعضها بحجر بعض، ولا تقبل الانفصام. فإذا ما وجدت الأولى تتابعت الأخريات على إثرها، وإذا اختفت ذهبت على الفور في أعقابها، فالإلزام بلا مسؤولية يعني القول بوجود إلزام بلا فرد ملزم، وليس بأقل استحالة من ذلك أن نفترض كائنا ملزما ومسؤولا بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها في "جزاء" مناسب، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها"[33].

وتتضح هذه المبادئ من خلال مراحل التربية الأخلاقية كما حددها العلماء والباحثون المختصون في هذا المجال، إذ تختلف من مجتهد لآخر. ويمكن أن نقتصر على ما أورده نورمان بيل نموذجا والذي حددها في نظرية النمو الأخلاقي الشامل في أربع أساسية[34]

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل القيم الأخلاقية: وفي هذه المرحلة تكون أهم مميزات السلوك فقدان القيم الأخلاقية لأنه قد يكود عديم الضمير فاقدا للقيم، إذ الضمير لا يولد مع الإنسان وإنما يتكون فيما بعد نتيجة ظروف وعلاقات خارجية، ولذلك يوجهه مشاعر الألم والسرور. فما كان مؤلما فهو سلوك سيء وما كان سارا فهو سلوك حسن، فالطفل في هذه المرحلة يتصرف بدون قوانين ولا قواعد أخلاقية.

المرحلة الثانية: مرحلة القيم الأخلاقية الخارجية: وفي هذه المرحلة توجه السلوك عوامل العقاب والثواب، فما يعاقب عليه هو سيء وما يثاب عليه فهو حسن. فالسلوك هنا مفروض على الطفل من الخارج. وهذه المرحلة ليست هدفا وإنما وسيلة لهدف يفرضه الكبار على الصغار بغية تعويذهم على السلوك الذي يراه الكبار حسنة وتنفيرهم مما يرونه سيئا، وأبرز سمات السلوك في هذه المرحلة هو

(32) نفسه، ص 124.
(33) دراز، محمد عبد الله. دستور الأخلاق، تحقيق عبد الصبور شاهين، مراجعة محمد السيد بدوي، مؤسسة الرسالة، ط 1950م، ص 136.
(34) الكيلاني، ماجد عرسان. اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية، دار البشير، عمان، 1412هـ/1992م، د. ط، ص 32-35.

التبعية. والتبعية مرحلة ضرورية في حياة الطفل إذ من خلالها يتدرب على السلوك الحسن وعلى ضبط نوازع الخطأ، ولكنها يجب ألا تكون هدفا بذاتها وإنما وسيلة مؤقتة لهدف تطوير القدرة على الضغط الذاتي.

المرحلة الثالثة: مرحلة القيم الخارجية/الداخلية: وفي هذه المرحلة توجه التقاليد الاجتماعية سلوك الطفل أو الناشئ، ويترجم هذا التوجه عمليا بوسائل الثناء والذم، ومع أن هذه التقاليد عوامل خارجية إلا أن لها رصيدا قويا في نفس الطفل وتفكيره، وأبرز سمات السلوك في هذه المرحلة التبادلية أي أن الطفل في هذه المرحلة يتبادل الأخذ والعطاء مع بيئته الاجتماعية وهي مرحلة يبدأ يتكون فيها الحس بالعدالة.

المرحلة الرابعة: مرحلة القيم الداخلية: وفي هذه المرحلة يتحرر فيها سلوك الناشئ من الضغوط الخارجية سواء أكانت مادية أو نفسية، ولذلك فأبرز سمة لهذا السلوك هو الاستقلالية، وأبرزها مظاهر الاستقلال العاطفي واستقلال الحكم على مظاهر السلوك أو الحكم الأخلاقي، وفي هذا المستوى ينضج ضمير الناشئ.

إن القاسم المشترك بين هذه المراحل عند نورمان وغيره، كونها: "تنبني على التدرج في التربية الأخلاقية: حيث لا يمكن الوصول إلى مرحلة تقديس الأوامر والنواهي دفعة واحدة بل لابد من استخدام وسائل معينة تبعا للمرحلة العمرية والفروق الفردية، وهذا ما أسماه كوهلبرج (kohlberg) بالمبادئ الأخلاقية العامة وهي المرحلة النهائية للأخلاق يسبقها التوجه للالتزام الأخلاقي من خلال الثواب والعقاب، وتبادل المنفعة ثم الخضوع للأعراف الاجتماعية والقوانين إلى أن يصل إلى تلك المرحلة" [35].

من هنا تكمن أهمية الاهتمام بالتربية المعتمدة على الأخلاق والقيم على اعتبار أن القيم هي الموجه الأساس لعملية التربية. ووفق هذا المنحى فهي " تسعى لبناء الفرد الصالح الذي ينفع نفسه ومجتمعه

(35) العزام محمد، مطالقة أحلام، ربابعة ابتسام. التربية الأخلاقية عند الإمام الغزالي وعلاقتها بالتصوف وتطبيقاتها المعاصرة، مجلة المنارة، المجلد 20، العدد 1/ب، 2014/04/16م، ص 454و455.

وينطلق في عمله من قيم راسخة توجهه إلى الطريق السليم، مما يؤهله للمساهمة في تنمية المجتمع الذي ينتمي إليه.

والملاحظ أن الفرد الذي ينطلق في عمله من إطار قيمي سليم، فهو من خلال ذلك يتمكن من توجيه كل طاقاته وإمكاناته لخدمة مجتمعه، مما يساهم في زيادة الإنتاج ونهضة المجتمع. فالتربية في جوهرها عملية قيمية، حيث إنها تسعى لتوجيه الفرد والجماعة نحو الأفضل"[36]. يقول مقداد يالجن: "إن العامل الأخلاقي ليس عامل وقاية الحضارات من السقوط فقط، بل إنه إلى جانب ذلك عامل بناء، لأن الباحثين عن الحضارة يعدون العامل الأخلاقي من عوامل نمو الحضارات، بل أساسا من أسس نموها، فقد سئل وزير التعليم الياباني: إلى ماذا يرجع التقدم الذي أحرزته اليابان؟ فقال: إلى نظام تربيتنا الأخلاقية"[37] .

ونخلص بالقول إن التربية الأخلاقية تشكل في الوقت الراهن مجالا خصبا باعتبارها مركز وأساس بناء شخصية الفرد وذاته، وكون غايتها استثارة الوجدان الخلقي المتأصل في الإنسان، وإيقاظ البواعث النفسية السوية المتجذرة في كيانه النفسي، بما يؤهله للتخلق بأخلاق احترام البيئة، التي تلزمه برعاية مكوناتها وعناصرها، وحفظ مواردها من التلف والاستنزاف. فلا "يخفى دور القيم في توجيه النفس إلى مكامن الخير والصلاح، إذ هي مجبولة على استقبال المؤثرات، واستيعاب المحرضات، بخيرها وشرها، فإذا كان المؤثر داعيا إلى الخير، حاديا إلى الإحسان، تحولت القيم إلى سجايا روحية موجهة قبل أن تكون ضوابط قانونية أو دستورية معلمة"[38]. وبهذه التربية الأخلاقية السائدة لدى الأفراد يتشكل الضمير الكوني وتصنع الحضارة العالمية الخلاقة، فهي تعبير عن وعي إنقاذي، وإن جاء متأخرا، لتلازم مصير الإنسان بمصير الكوكب الأخضر الذي يقله ويحضنه، فإذا صلحت التربية صلح الفرد وصلح العالم وسلمت البيئة.

(36) سليماني، جميلة. التربية على القيم، مجلة عالم التربية، العدد 21، 2012م، ص 289.

(37) يالجن، مقداد. دور التربية الأخلاقية الإسلامية، في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، (م.س)، ص 129.

(38) الريسوني، قطب. المحافظة على البيئة من المنظور الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ/2008م، ص 191.

خاتمة:

إن التربية الأخلاقية أصبحت ضرورة لتؤطر حياتنا من جديد، ففيها الخلاص للبشرية مما تعانيه من أزمات، وما يعرفه العالم اليوم من مآزق في مختلف المجالات بسبب الابتعاد عن الأخلاق والقيم، وتدمير الطبيعة، وسيطرة النزعة المادية التي همها هو الربح والإنتاج ولو على حساب جودة حياة الإنسان ومستقبل الأجيال. حيث أصبح العالم المعاصر يتخبط خبط عشواء لما كثر فيه من الفساد، واضمحل فيه من القيم والأخلاق، وبالتالي فالرجوع إلى التربية الأخلاقية أمر حتمي للخروج من الأزمات التي أصابت البيئة بكل أبعادها ومكوناتها وتجلياتها، وخيارا ضروريا للحد من تفاقم مآزقها التي سقطت فيها البشرية عندما غيبت سؤال الأخلاق في الفكر الإنتاجي والتجاري المضر المستنزف لكل الموارد المتاحة. فهي إذن مشروع حضاري مشترك لا غنى للبشرية عنه، وإبعادها عن الحياة ظلم ونفي لخصوصيات الإنسان الفطرية والمكتسبة.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- ابن فارس، أحمد. مقاييس اللغة، دار الجبل، بيروت، ط1، ب. ط، ج 1، مادة (ربى).
- ابن مسكويه. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1401هـ/1981م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج10.
- الأصفهاني، الراغب. المفردات في غريب القرآن، تحقيق داوودي صفوان، دار العلم، دمشق، ط1، 1412هـ.
- إيموركون، إشراف. معجم علم الأخلاق، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، ط5، 1983م.
- الجندي، انور. القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية، مطبعة الرسالة.
- الحبابي، محمد. دفاتر غدوية الدفتر الأول: أزمة القيم، دار المعارف.
- حرفي، سوزان. حوارات مع عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، دار الفكر، دمشق، ط2، 1431هـ/2010م.
- دراز، محمد عبد الله. دراسات إسلامية، دار القلم، الكويت، ط2، 1974م.
- دراز، محمد عبد الله. دستور الأخلاق، تحقيق عبد الصابور شاهين، مراجعة محمد السيد بدوي، مؤسسة الرسالة، ط 1950م.
- روس، جاكلين. الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل عوا، دار عويدات، بيروت، ط1، 2001م.
- الريسوني، قطب. المحافظة على البيئة من المنظور الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ/2008م.
- الزمخشري، محمود بن عمر جار الله، أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة، ط1، 1341هـ/1922م، كتاب الراء، مادة ربو.
- سليماني، جميلة. التربية على القيم، مجلة عالم التربية، العدد 21، 2012م.
- شيخاني، محمد فيصل. القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية: دراسة تاريخية وتربوية تحليلية، مكتبة الأسد، 1997م.
- الصنيع، صالح بن إبراهيم. دراسات في علم النفس من منظور إسلامي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1423هـ.
- طه، عبد الرحمان. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1997م.
- طه، عبد الرحمان. روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006م.

- طه، عبد الرحمان. سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2006م.
- العزام محمد، مطالقة أحلام، ربابعة ابتسام. التربية الأخلاقية عند الإمام الغزالي وعلاقتها بالتصوف وتطبيقاتها المعاصرة، مجلة المنارة، المجلد 20، العدد 1/ب، 2014/04/16م.
- العمري، أكرم ضياء. قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، ضمن كتاب الأمة.
- الغزالي، محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، دار الندوة الجديدة، دار الحكمة، دمشق، بيروت، 1407هـ/1986م.
- الكتاني، محمد. منظومة القيم المرجعية في الإسلام، دار أبي رقراق، ط2، 1433هـ/12011م.
- الكيلاني، ماجد عرسان. اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية، دار البشير، عمان، 1412هـ/1992م، د. ط.
- محجوب، عباس. أصول الفكر التربوي في الإسلام، دار ابن كثير، دمشق، 1398هـ/1978م.
- نادية، محمود مصطفى. إشكالية البحث والتدريس في علم العلاقات الدولية من منظور حضاري مقارن، المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط1، 1431هـ/2010م.
- هلال، عصام الدين. التربية البيئية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2007م.
- يالجن، مقداد. دور التربية الأخلاقية الإسلامية، في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، دار الشروق، ط1، 1983م.

مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

maarifa-center.com

maarifa2011@ gmail.com

facebook.com/almaarifa.centre

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة© 2020

لجنة الإعلام والتواصل